بصائر | رسالة ١

الفاتحة

أعظم سورة في القرآن

نردّدها كل يوم، فهل نهتدي بها في حياتنا؟



بدر أبو المجد

قراءة · تدبر · عمل

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾

الحجر، 78

القرآن كلامُ الله عزّ وجلّ، أنزله هدايةً للناس، يخاطب عقولهم وقلوبهم، وينير لهم طريق الحقّ والرشاد. ولا تقتصر هدايته على الأحكام والشعائر، بل تشمل مختلف شؤون الحياة؛ من علاقة الإنسان بربّه، وعلاقته بنفسه وسعيه إلى تزكيتها، وعلاقته بالآخرين ودوره في المجتمع، وما يترتّب عليه من أعمال ومسؤوليات. فهو يعينه على إدراك غاية وجوده، وإصلاح نفسه ومحيطه، وتوجيه حياته نحو ما هو **أَقْوَم**.

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

الإسراء، 9

وتفتح كلمة **أَقْوَم** أفقًا واسعًا، يشير إلى ما هو أشدّ استقامةً وأعدل وأصلح. والسير نحو هذا الأفق يقتضي من الإنسان أن يراجع وجهته واختياراته في ضوء هداية القرآن، وأن يتجاوز مجرّد تلاوته إلى فهم آياته وتدبّر معانيها، كما قال الله عزّ وجلّ:

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

ص، 92

والتدبّر دعوة موجّهة إلى كلّ مؤمن. وهنا يحسن التمييز بين التدبّر والتفسير؛ فالتفسير يسعى إلى بيان معاني الآيات، مستعينًا بأصوله وعلومه. أمّا التدبّر فلا يحلّ محلّه، بل ينطلق من فهم صحيح للآيات، ليتأمّل المؤمن ما تحمله من هداية، وينظر في أثرها في حياته وعمله.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

القمر، 71

فالقرآن ميسّر للذكر، ولكن التعمّق في معانيه يحتاج إلى صحبة ومداومة وإقبال. وكلّما عدنا إلى آياته، اكتشفنا فيها ما غاب عنّا من قبل، وازداد فهمنا لها نضجًا ورسوخًا، واستطعنا أن نغترف، بحسب استعدادنا، من معين لا ينفد.

وفي قلب هذه الصحبة المتجدّدة مع القرآن، نلتقي كلَّ يوم بسورةٍ قد تجعلنا كثرةُ ترددها نغفل عن عظيم قدرها، وهي **الفاتحة**.

لسورة **الفاتحة** منزلةٌ فريدة في القرآن الكريم؛ فهي السورة التي يُفتتح بها المصحف، ومنها يبدأ المؤمن رحلته مع كلام الله عزّ وجلّ. وعلى قِصر آياتها، تحمل معاني عظيمة تجمع أصول العلاقة بين العبد وربّه، من الحمد والثناء والتعظيم، إلى العبادة والاستعانة وطلب الهداية. وقال بعض أهل العلم إنّها أول سورة نزلت كاملةً على النبي ﷺ، بعد أن سبقتها آياتٌ من سور أخرى. ولم تكن مكانتها مستمدّة من ترتيبها أو سبق نزولها، بل ممّا اختصّها الله به من فضل، وما تحمله من معانٍ جامعة، وما ورد في شأنها من أخبار تكشف عن عظيم قدرها.

وقد استوقفت هذه السورة، على قِصَرها، كبارَ المفسّرين لما رأوا فيها من كثافة المعاني واتساع الدلالات. ومن أبرزهم **فخر الدين الرازي** (606هـ)[1]، صاحب التفسير الكبير ـ مفاتيح الغيب، إذ يقول في مطلع تفسيره للفاتحة: «اعلم أنه مرَّ على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يُستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة». وليس المقصود الوقوف عند العدد، وإنما استحضار ما تكشف عنه هذه العبارة من ثراء المعاني التي تحملها آيات الفاتحة على قصرها. وهي دعوة إلى ألّا تحجب عنّا أُلفة التكرار عمقَ السورة، وأن نعود إليها في كل مرة بعين تبحث عن معنى، وقلب يتطلّع إلى هداية.

وللفاتحة فضائل كثيرة، نكتفي منها ببعض ما صحّ في السنة النبوية مما يكشف لنا عظيم منزلتها؛ فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل عليه السلام كان جالسًا عند النبي ﷺ، فسمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فإذا بابٌ من السماء قد فُتح لم يُفتح من قبل، ونزل منه مَلَك لم ينزل إلى الأرض من قبل، فسلّم ثم بشّر النبي ﷺ بنورين لم يُؤتهما نبي قبله:

> أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ:
> فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ،
> لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ
>
> رواه مسلم

نوران خُصَّ بهما النبي ﷺ، وكانت فاتحة الكتاب أحدهما، وفي ذلك دلالة على عظيم فضلها. ويتجلّى هذا الفضل أيضًا في ارتباطها الوثيق بالصلاة، وما أدراك ما الصلاة ومكانتها في الإسلام! فالفاتحة تُقرأ في كلّ ركعة، ويردّدها المسلم في الصلوات المفروضة وحدها سبع عشرة مرّةً على الأقلّ كلّ يوم، ولا تصحّ الصلاة بدونها. وقد أكّد النبي ﷺ ذلك بقوله:

> لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ
>
> رواه البخاري ومسلم

ولا تقف عظمة الفاتحة عند مكانتها في الصلاة، فقد خصّها الله عزّ وجلّ بفضلٍ عظيم يميّزها بين سور القرآن الكريم، بل يتجاوز ذلك إلى ما أُنزل من الكتب السماوية. وهذا يكشف عن منزلة استثنائية لهذه السورة القصيرة التي جمعت من المعاني والهداية ما يجعلها فريدةً في قدرها ومضمونها. وقد بيّن النبي ﷺ هذا الفضل بقوله:

[1] فخر الدين الرازي عالم موسوعي، جمع في مؤلفاته بين التفسير وعلم الكلام والفقه والفلسفة والمنطق، واشتغل كذلك بعلوم الطبيعة والفلك والطب.

> وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا
>
> رواه الترمذي

وتتجلّى مكانة الفاتحة كذلك في كثرة أسمائها وتنوّع دلالاتها، فقد ذكر لها بعض العلماء أكثر من عشرين اسمًا، يعكس كلّ منها جانبًا من معانيها أو وجهًا من وجوه فضلها. فهي **فاتحة الكتاب**، إذ يُفتتح بها المصحف، و**أمّ القرآن** و**أمّ الكتاب**، لما جمعته من أصول الهداية ومقاصد القرآن الكبرى. وهي **السبع المثاني**، لآياتها السبع التي تتكرّر تلاوتها في الصلاة، ركعةً بعد ركعة. ومن أسمائها التي ذكرها العلماء **الأساس**، لما اشتملت عليه من أصول الدين ومعانيه الجامعة، و**الشافية**، لما ثبت في السنّة من الاستشفاء بها؛ فقد رقى بها أحد الصحابة رجلًا لُدغ، فبرأ بإذن الله، وأقرّ النبي ﷺ ذلك. ومن أسمائها أيضًا **الكنز**، إشارةً إلى ما اختصّها الله به من فضل وعطاء. وهكذا تكشف هذه الأسماء، على اختلاف دلالاتها، عن عظيم قدر الفاتحة وثراء معانيها.

ولعلّ من أعظم ما يكشف عن منزلة الفاتحة ما يجري بين العبد وربّه حين يتلوها في صلاته؛ فهي ليست مجرّد كلمات يردّدها المؤمن، بل مناجاةٌ يجيبه الله عزّ وجلّ فيها، كما يبيّن ذلك الحديث القدسي:

> قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ
>
> رواه مسلم

ويكشف هذا الحوار عن بناء الفاتحة في ثلاثة حقوق مترابطة: **حقّ الله**، في الحمد والثناء والتعظيم؛ و**حقّ ما بين الله وعبده**، في إفراده سبحانه بالعبادة والاستعانة؛ ثم **حقّ العبد**، في دعائه ربّه وسؤاله الهداية.

حقّ الله

فإذا قال العبد

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

قال الله عز وجل

حَمِدَنِي عَبْدِي

وإذا قال

الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله عز وجل

أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي

وإذا قال

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

قال الله عز وجل

مَجَّدَنِي عَبْدِي

في هذه الآيات الثلاث الأولى، يتعرّف العبد إلى ربّه ويستحضر رحمته وملكه، ثم تأتي الآية التي تنقله إلى جوهر علاقته بالله عز وجل، بإفراده بالعبادة والاستعانة.

حقّ ما بين الله وعبده

فإذا قال العبد

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

قال الله عز وجل

هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي،

وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ

تحتلّ هذه الآية موضعًا مركزيًّا تلتقي فيه دلالتان متكاملتان: التزام العبد بعبادة الله وحده، وإقراره بافتقاره إليه وطلبه العون منه. فهي **محور** في الفاتحة، تصل ما سبقها من معرفة الله والثناء عليه بما يليها من سؤال الهداية.

وقد كانت العبادة والاستعانة في صميم الحديث عن السلوك إلى الله، وعن الطريق الذي يسلكه العبد إلى ربّه ومنازله المختلفة. فقد صنّف **أبو إسماعيل الهروي** كتابه منازل السائرين في منازل سلوك العبد إلى ربّه، وجعلها مئة منزلة موزّعة على عشرة أقسام.

ثم جاء **ابن قيم الجوزية** فاتخذ من كتاب الهروي منطلقًا لعمل أوسع في كتابه الشهير مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ولم يقتصر فيه على شرح منازل الهروي، بل افتتحه بحديث مطوّل عن الفاتحة ومعانيها وما تتضمنه من أصول السلوك، قبل أن ينتقل إلى منازل السالكين إلى الله.

ويضع عنوان الكتاب نفسه قوله تعالى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ في قلب هذا السلوك؛ فالعبادة تحدّد التزام العبد ووجهته، والاستعانة تذكّره بأن الطريق لا يُقطع بقوته وحدها. ومن هنا تتجلّى مركزية هذه الآية في بناء ابن القيم للسلوك إلى الله.

حقّ العبد

فإذا قال العبد

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

قال الله عز وجل

هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ

هنا يرفع العبد حاجته إلى ربّه، فيسأله الهداية إلى الصراط المستقيم، والثبات على طريق الذين أنعم عليهم، والبعد عن السبل التي تصرفه عنه. وبذلك يكتمل بناء الفاتحة في تدرّج واضح، يبدأ بحمد الله والثناء عليه وتعظيمه، ثم إفراده بالعبادة والاستعانة، وينتهي بسؤال يجمع بين **الهداية والتمييز والثبات على الطريق**.

الفاتحة ليست سورةً نردّدها فحسب، بل بوصلةٌ نعود إليها كلَّ يوم لنستعيد وجهتنا. ففي آياتها السبع يتحدّد المقصد، ويستقيم التوجّه، ويتجدّد طلب الهداية. ولعلّ سرّ حضورها المتكرّر في حياة المؤمن أن الطريق يحتاج دائمًا إلى تصحيح الوجهة. فنحن لا نطلب الهداية مرّةً واحدة، بل نحتاج إليها في كلّ خطوة، وفي كلّ اختيار، وفي مختلف شؤون حياتنا. ومن هنا تبدأ رحلتنا مع الفاتحة: أن ننتقل من ترددها إلى تدبّرها، ومن تدبّرها إلى أن تصبح هدايتها حاضرةً في حياتنا، تقودنا ـ بإذن الله ـ نحو ما هو أَقْوَم.

سبع آيات نردّدها كلَّ يوم، حتى نكاد نألفها دون أن نتوقّف عند معانيها.

فهل تساءلنا يومًا عمّا يمكن أن تُغيّره فينا،
وكيف يمكن أن تصبح بوصلةً توجّه حياتنا نحو ما هو أَقْوَم؟

من الفهم إلى العمل

قراءة · تدبّر · عمل

نقرأ بوعي

نجعل لنا وِردًا يوميًّا من القرآن، نُوثّق به صلتنا بالله، ونحرص على تلاوته بحضور القلب. ونولي الفاتحة عنايةً خاصة، فنحسن تلاوتها ونستحضر معانيها، حتى لا تتحوّل كثرة ترددها إلى مجرّد عادة.

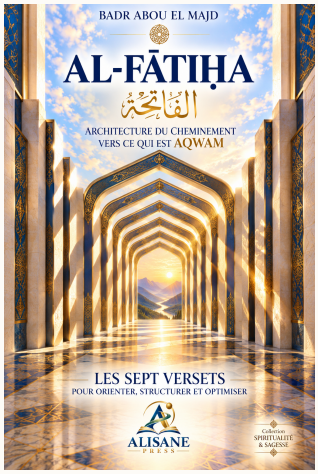
نتدبّر بعمق

نسعى إلى تعميق فهم معاني الفاتحة، ونتأمّل ترابط آياتها وما تكشفه لنا من معانٍ ودلالات. ونعود إليها في كلّ مرة بقلب متدبّر وعقل متأمّل، سعيًا إلى فهم أعمق لما تحمله من هداية.

نعمل بما نتعلّم

نجعل من الفاتحة مفتاحًا للاهتداء بالقرآن في حياتنا، فنراجع سلوكنا واختياراتنا وعلاقاتنا في ضوء هدايته، ونسعى إلى توجيه مختلف شؤون حياتنا نحو ما هو **أَقْوَم**.

لمن أراد التوسّع



الفَاتِحَة

بنية السير نحو ما هو أَقْوَم

يدعو هذا الكتاب إلى تأمّل الفاتحة في وحدة بنائها وترابط آياتها السبع، والنظر فيما تكشفه من معالم الهداية في حياة الإنسان.
ومن خلال قراءة تستضيء بمفاهيم التحسين الرياضي، يسعى إلى إبراز دور كلّ آية في هذا البناء المتكامل، وكيف تتضافر الآيات في توجيه سير الإنسان نحو ما هو أَقْوَم.

الكتاب متاح حاليًّا باللغة الفرنسية، والنسخة العربية قيد الإعداد.

التعرّف على الكتاب والاطّلاع على تفاصيله

www.alisane.com/al-fatiha.html